بطل من أصحاب الأخدود

إنه الأسد الشجاع، بطل المسلمين، وفخر الجزائر.. الذي تحمل في سبيل الله، ما تنوء به الجبال، وأتى من الصبر على البلاء لم يسبقه إليه إلا أولو العزم من أهل البلاء.

نحن الآن أمام رجل من الثابتين، الذين منحهم الله تعالى قدرة على التحمل والصمود في سبيله، والرضا بالقضاء صابرًا محتسبًا، فهو تمامًا كأصحاب الأخدود في ثباتهم، حينما ألقاهم الطاغية الأثيم في النار وأخدودها العظيم.. وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنه بلاء فاق بلاء الكثيرين من العلماء الثوار الثابتين في وجه الظلم والطغيان والغدر، والصابرين على المصائب الضخمة العظيمة.! وقد لا نبالغ إن قلنا: إن أحمد بن حنبل، وأبو حنيفة، وسعيد بن المسيب، وابن جبير، لم يكن كل هؤلاء في بلائهم، والذي أفضى ببعضهم إلى الموت، على هذا القدر الرهيب من البشاعة التي لقيها هذا العالم الثبت البطل الشجاع الصابر المحتسب.. لقد عذب عذابًا تقشعر له الأبدان، وتغلي له المشاعر، وترتجف له القلوب حرقة وألمًا وشفقة ووجلاً.!

لكنه ﷺ يُعلمنا بما كان منه وما ضرب لنا من ثبات، معنى أن يكون العالم في أمته، وكيف يكون بين شعبه؟ وكيف يتحمل أمانة وطنه، وكيف يفني ذاته ويجود بنفسه ويتحمل الأذى في سبيل قضيته؟ مثل عظيم، وملحمة بطولية لا تنساها الأجيال، وتظل مع الأزمان تروي عظمة صاحبها وبلاءه الذي تندر في دنيا الأبطال.

كثيرون من الحاقدين تسوؤهم تلك البطولة، وغيرهم من الماكرين يحاولون إخفاءها والعمية عليها، حتى يقتلها النسيان ويندثر آثرها.. وذلك

كله لأن صاحبها وبطلها عالم دين مُعمم، استطاع أن يقود النضال، ويتزعم الجهاد، ويقوم بدور خالد في قضية تحرير الوطن، والاستبسال في التضييق على المحتل، حتى حانت لحظة الشهادة التي ختم بها حياته بطلاً شامخًا من أبطال الجزائر الأبية، والتي كانت حادثتها مذهلة، تقف النفس حيال ما فيها من تفاصيل وقفة خشوع واستعظام كبير.

ولد العربي بن بلقاسم بن مبارك التبسي عام (١٨٩٥م) في ناحية آسطح ببلدة تبسة، التابعة لمدينة قسنطينة، لأسرة فقيرة تعمل في الزراعة، وكان أبوه معلمًا للقرآن رحل عن الحياة حينما بلغ ولده سن الثامنة.

بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم على أبيه، وبعد وفاته، التحق بزاوية ناجي الرحمانية في الخنقة، فأتم بها حفظ القرآن خلال ثلاث سنوات، ثم التحق بزاوية مصطفى بن عزوز بجنوب غرب تونس عام ١٩١٠م وفيها أتقن رسم القرآن وتجويده، وأخذ مبادئ النحو والصرف والفقه والتوحيد، وبعد أربع سنوات، انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس، ونال منه شهادة الأهلية، ثم رحل إلى القاهرة عام (١٩٢٠م) ودرس العلوم الشرعية في الجامع الأزهر.

وفي عام ١٩٤٧م تولى العربي إدارة معهد ابن باديس في قسنطينة، وانتقل عام ١٩٥٦ إلى العاصمة الجزائر لإدارة شؤون جمعية العلماء.

وبعد رحلته الطويلة لطلب العلم في تونس ومصر، عاد التبسي إلى الجزائر عام ١٩٢٧م، وكان لابد أن يقوم برسالته كعالم يوقظ الناس ويبصرهم بأمور الدين، ويعالج قضاياهم ويبدأ في القيام بدوره كمرب وقائد يوجه الناس لواجبهم الوطني والديني.. فاتخذ من مسجد صغير ببلدة تبسة مركزًا لنشاطه الدعوي والتعليمي.

وعندما اكتظ ذلك المسجد برواد دروسه وحلقاته العلمية، اضطر إلى الانتقال إلى الجامع الكبير في المدينة، والذي كان يومها خاضعًا لإشراف إدارة

الاحتلال الفرنسي، لكنه لم يلبث كثيرًا حتى منعته تلك السلطات من النشاط في ذلك الجامع، بإيعاز من بعض رؤوس الطرقية والخونة المتعاونين مع الاحتلال، ممّا اضطره إلى العودة مرة أخرى إلى النشاط في المسجد الصغير الذي بدأ منه في أول الأمر.. كان الشيخ التبسي يركز في دروسه وخطبه على جوانب الإصلاح في أمور العقيدة، وتطهيرها من الخرافات والبدع التي علقت بأذهان الناس، من جرّاء نفوذ السلطة الدينية الطرقية في نفوسهم ،وتأثيرها على عقولهم، إلى جانب التركيز على الأمراض الاجتماعية المنتشرة آنذاك وآثارها الوخيمة على الفرد والمجتمع، وعلاقة الاستعمار بما كان يُعانيه المجتمع من ضيق وعناء في أمور الدين والدنيا.. وبعد انتشار أفكار الشيخ الإصلاحية في تبسة وضواحيها، و إقبال الناس على دروسه وجلساته، اشتدت المضايقات عليه وأنصاره مِن قِبَل إدارة الاحتلال وأعوانها من الطرقيين والانتفاعيين، فنصحه الشيخ ابن باديس بالخروج من تبسة إلى مدينة سيق بغرب الجزائر.. وكان أهلها قد بنوا مدرسة جديدة دعوا الشيخ التبسي لإدارتها، ووصل الشيخ التبسي إلى سيق سنة ١٩٣٠م، وشرع في عمله فيها مترددًا بين فترة وأخرى على تِبسة إلى غاية سنة ١٩٣٣م، حيث قرّر العودة إليها مرة أخرى بعد إلحاح أهلها عليه، وحرصهم على بقائه بينهم.

وبعد وفاة علامة الجزائر عبد الحميد بن باديس ونفي البشير الإبراهيمي، اتجهت الأنظار إلى التبسي بصفته المؤهل لملء الفراغ العلمي والدعوي، فتوافد إليه طلاب العلم من كل مكان.. واعتمدت طريقة الشيخ التبسي في التدريس على قراءة نص قرآني أو حديث نبوي، فيفسر مفرداته والمعاني والحكم التي يتضمنها، وبَعدَ الجانب التعليمي من الدرس، ينتقل إلى الأمراض الاجتماعية، فيشرحها ويبين أسبابها وعواقبها في الدنيا والآخرة.

لم يكن التبسي كهؤلاء العلماء الإمعات الذين يرضون بالدنية، ويظنون أنهم بالعلم وحده إنما يؤدون رسالتهم على أكمل وجه و أفضل أداء، ويسول لهم الشيطان خادعًا لهم، أن هذا واجبهم المنوط بهم حتى يُثنيهم عن مسؤوليتهم الكبرى في قيادة الأمة، وجهاد عدوها والتصدي لكل انحراف يصيب مسيرتها.. لقد هاجم التبسي من يُسميهم أدعياء التصوف، ووصفهم بالدجالين الضالين.. وهم أول الفرق والفئات التي كانت تُناصر المحتل، وتبرر الهزيمة، وتُشرّع التخاذل، وترفع لواء التبعية والاستسلام للظلم والانحناء للطغاة، كما وظف مكانته الدعوية والعلمية بين الجماهير في الحث على الجهاد، فحث الشباب واستنفرهم على القتال والانخراط في الثورة، والقيام بدورهم في تحرير البلاد من المحتل الغاصب، ولم يكن جهاده وتوعيته بلسانه فقط، و إنما قام بنشر مقالاته في صحيفة الشهاب تحت عناوين قوية من قبيل "الجزائر تصيح بك أيها الجزائري أينما كنت".

وبعد هذا الجهر بالعداء، والتحريض من التبسي ضد الاستعمار الفرنسي، نصحه الكثير من أصدقائه، وحاولوا إقناعه بالخروج من الجزائر بعد أن أصبح هدفًا واضحًا للمحتلين، فكان جوابه: "إذا كنا سنخرج كلنا خوفًا من الموت فمن يبقى مع الشعب؟".

ثم يزيد في إصراره وثباته حيث يقول: "لو كنت في صحتي وشبابي ما زدت يومًا واحدًا في المدينة، ولأسرعت إلى الجبل لأحمل السلاح و أقاتل مع المجاهدين.!".

علم المستعمرون أن الشيخ العربي التبسي يتمتع بشعبية كبيرة، و أنه مؤيد للجهاد وأحد محركي القواعد الخلفية له، فأرسلوا إليه عن طريق إدارتهم في الجزائر عدة مبعوثين للتفاوض معه بشأن الجهاد ومصيره، وبعد رفضه المستمر للتفاوض باسم الأمة، وأن عليهم التفاوض مع المجاهدين

فقط، رأى المستعمرون أنه من الضروري التخلص منه، ولم يستحسنوا اعتقاله أو قتله علنا، لأن ذلك سوف يزيد من حماس الأمة للجهاد ومن حقدها على المستعمر، فتم خطفه، و قد نقل المجاهد أحمد الزمولي عن إبراهيم البوسعادي، الذي كان ضمن تشكيلة القبعات الحمر، وحضر معهم يوم اختطاف الشيخ من بيته، كما حضر مراحل إعدامه، وكان منظر الإعدام سببًا في التحاقه بالمجاهدين كما ذكر، وجاء في هذه الرو اية ما يلي: " وقد تكفل بتعذيبه فرقة من الجنود السنغاليين في الجيش الفرنسي، والشيخ بين أيديهم صامت صابر محتسب لا يتكلم، إلى أن نفذ صبر "لاقايارد" قائد فرقة القبعات الحمر الفرنسية.

وبعد عدة أيام من التعذيب، جاء يوم الشهادة، حيث أعد للشيخ قدر كبير مليئ بزيت السيارات والشاحنات العسكرية والأسفلت الأسود، وأوقدت النيران من تحتها إلى درجة الغليان، والجنود يقومون بتعذيبه دونما رحمة أو شفقة، وهو صابر محتسب، ثم طلب منهم لاقايارد حمل الشيخ العربي.. فحملوه وأوثقوا يديه ورجليه، ثم رفعوه فوق القدر المتأجج، وطلبوا منه الاعتراف وقبول التفاوض وتهدئة الثوار والشعب، والشيخ يردد بصمت وهدوء كلمة الشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم وضع قدميه في القدر المتأججة فأغمي عليه.. ثم أنزل شيئًا فشيئًا إلى أن دخل بكامله فاحترق وتبخر وتلاشى.

فرحمه الله رحمة واسعة، ونسأل الله أن ينتقم من الطواغيت في كل مكان.!